

الفريق العربي للحوار الاسلامي - المسيحي
ندوة التوترات في العالم العربي - محاولة لمد جسور السلام والمصالحة
دراسة حالة - سوريا
محمود رمضان - بيروت - لبنان
2013-06-23

ندوة التوترات في العالم العربي – محاولة لمد جسور السلام والمصالحة

دراسة حالة – سوريا

محمود رمضان – بيروت – لبنان

2013-06-23

- مقدمة – الحاضنة الإقليمية والتأثيرات الدولية ضمن منظور تاريخي قريب. 3
- الطريق إلى الأزمة والتحضير لها. 5
 - مصفوفة القيم للمجتمع عبر النسق القيمي للفرد واحتمالات التغيير.
 - التركيبة الاجتماعية والاقتصادية.
 - السياسة الثقافية.
 - سيطرة المؤسسات الإعلامية.
 - المشهد الافتتاحي
- الأزمة المرقطة. 9
- الخروج التدريجي من الأزمة ليس حلاً. 11
 - منتجات الأزمة.
 - خطاب الكراهية.
 - تضارب المفاهيم والقيم.
 - إدارة التنوع وبناء الهوية.
 - دور المجتمع المدني.
- ملامح عملية التحول مابعد الأزمة (الأسس الجديدة). 13
- المراجع. 16

● مقدمة - الحاضنة الإقليمية والتأثيرات الدولية ضمن منظور تاريخي قريب.

بالرغم من أن الكتابة عما يدور في بلدي لم يعد يحتمل مقدمات، ولكن مانراه سيصعب الحكم عليه من خلال التعاطي مع الحدث الحي، ومن خلال وعي يتطور بالألم يومياً، وربما بعد سنوات طويلة عندما يكشف النقاب عن المعلومات والتقارير الميدانية المحايدة، سنقف تماماً على حقيقة ماجرى في معركة خسرها كل السوريين، فلنفتح اليوم مجموعة من الخيارات العقلانية التي تحلم بوطن، أولى خطواتها بناء رأسمال للسلام ثقافياً وبنوياً، يساعد على إيقاف نزيف الدم السوري، وهو أهم سبب لأي اجتماع في هذه الأيام، فربما نضيف لجملة الجهود الأخرى الساعية لبناء مجتمع، يؤمن بالمواطنة والحوار، ويؤسس لمشروع سياسي اجتماعي اقتصادي، في وطن يتسع لتنوع كل السوريين.

مقاربة الخيارات والتوازنات الاستراتيجية - لا مستقبل لأمة من دون تاريخ:

● بعد هزيمة تركيا في الحرب العالمية الأولى ونهاية الخلافة الإسلامية، ظهر اتجاهين للتعاطي مع الغرب في حينه:

- ❖ رأى البعض العودة إلى التراث الديني فظهرت حركة الإخوان المسلمين في مصر 1928 وولدت المملكة العربية السعودية على عقيدة محمد بن عبد الوهاب 1934.
- ❖ والبعض الآخر الذهاب إلى ديمقراطية علمانية أوروبية، فظهر الفكر القومي العلماني في سوريا ولبنان والعراق ومصر، وظهرت أحزاب شيوعية وقومية سورية وقومية عربية.

● انتصرت القوى العلمانية مؤقتاً فظهر في بلاد الشام حزب البعث وحركة القوميين العرب وانتصر خط جمال عبد الناصر القومي العربي في مصر، إن عملية تجاوز الاسلاميين دون اخضاع العقل الديني والخطاب الديني إلى تحليل أو نقاش مما أبقى الحيز الاسلامي ناراً تحت رماد.

● الصراع العربي الاسرائيلي،- نكبة 1948 - انتصار اسرائيل وأقول القوى العلمانية العربية بعد هزيمة 1967 فكان السوريون ينقسمون إلى شيوعيين وناصريين وبعثيين وسوريين قوميين وإخوان مسلمين، واليوم هم سنة وعلويين ودروزاً ومسيحيين واسماعيليين. - انتصار العرب في حرب 1973، دخول إسرائيل إلى لبنان 1982.

● الاستراتيجية الإقليمية السورية، دخول سوريا لبنان 1976 وتدخلها في شؤون الأردن وفلسطين، اتهمت سوريا بتخليها عن القومية العربية واعتناق الفكر القومي السوري لتحقيق سوريا الكبرى، اغتيال الرئيس رفيق الحريري واتهام سوريا وخروجها من لبنان 2005. تحالف سوريا مع الجمهورية الإسلامية في إيران 1979 (اتهمت سوريا بتحالف مذهبي) للحصول على عمق استراتيجي يسمح لها ببناء قدراتها الدفاعية بوجه إسرائيل، وقد رأى السوريون أن من مصلحة العرب مد اليد لإيران بعدما أنهت نظام الشاه حليف إسرائيل والشرطي الأميركي في المنطقة، وأصبحت في المعسكر المناوئ لإسرائيل، وإذا كانت اسرائيل تنظر إلى الشرق الأوسط بكامله كرقعة استراتيجية واحدة لمصالحها وتحالفت مع شاه إيران ومع تركيا وإثيوبيا ضد العرب، فإن الأخرى بالعرب أن يحذوا حذوها الآن ويأخذوا إيران إلى حضنهم. حرب الخليج 1990 وإنهاء الحرب اللبنانية وانهيال الاتحاد السوفياتي سند سوريا ومصدر أسلحتها الأكبر.

● نقل الصراع العربي الاسرائيلي إلى صراع اسلامي اسرائيلي، بعد خروج مصر من الصراع، مما ساهم في تراجع الدور العربي كقوة اقليمية وصعود قوى اقليمية جديدة (الجمهورية الإسلامية في إيران - اسرائيل - التحول التركي)، تحرير جنوب لبنان عبر المقاومة الوطنية اللبنانية الإسلامية وعلى رأسها حزب الله، حرب تموز 2006 بدعم سوري - إيراني، دعم حرب غزة الأولى 2000 وحرب غزة الثانية 2009.

- الصراع الإسلامي – الإسلامي، الحروب الأهلية داخل الإسلام من بدايات الثمانينيات انطلاقاً من من حرب العراق وإيران، حرب البعثيين في سوريا والإخوان المسلمين، تعرية الغطاء العربي الذي يخفي تحته غلظاً من البداوة والقبلية والطائفية والمذهبية والإثنية والعائلية وقمع المرأة. ومرافقتها من تراجع للنفوذ المسيحي الذي دخل الساحة من خلال الأحزاب القومية والعمالية في تاريخنا القريب.
- إدارة التنوع في سوريا وامتدادته الإقليمية والدولية، إن السبب الرئيسي في اتساع الشروخ بين المكونات المجتمعية المختلفة في المجتمع السوري لا يعود برأينا إلى تنوع هذه المكونات وإنما إلى وجود إدارة سيئة للتنوع كانت تضغط بثقلها الأمني عليه لتحافظ على صورتها التعايشية الجميلة غير آبهة بما تخلقه في داخله من احتقانات وأحقاد، الأقليات في سوريا فالتركيبة السورية قوماً (80% عرب، 15% أكراد والباقي آشوريين وسريان وأرمن وشراكس وتركماني) ودينياً (السنة 70-75%، العلويون 15-20%، الدروز 1-3%، الاسماعيليون 3-31%، المسيحيون 5-10% والشيعية، والمرشديون، واليهود اللذين هاجروا في عام 1992 ولم يبق منهم إلا العشرات)¹.
- المسيحيون في مجتمع بأغلبية إسلامية، أما عن المسيحيون هم أصليون من سكان البلاد القدماء وتعود جذورهم إلى ما قبل الإسلام، وكانوا الأغلبية الساحقة حتى مجيء الفرنجة (الصلبيون) بعد القرن العاشر للميلاد، أما في الخمسينيات من القرن الماضي في سوريا، أثر أمران على عدم زيادة عدد المسيحيين ونسبتهم، الأول: النمو العائلي أي الولادات التي تقلصت عند العائلات المسيحية بشكل كبير، وأخذت العائلة تكتفي بولدين أو ثلاثة عكس ما كان عليه في الماضي. ومن الطرف الآخر كان المسلمون يزدادون عدداً. والسبب الثاني هو الهجرة وذلك لأسباب كثيرة منها: أمنية، اجتماعية، تغيرات في الأنظمة، اقتصادية وأهم عامل هو الخوف من المستقبل.²
- ويبرز تساؤل عن التركيز على مسيحي الشرق دولياً، ما بين خطاب "السلام عليكم" للرئيس الأميركي باراك أوباما في القاهرة 2009 حيث مدح جامعة الأزهر الإسلامية، وكان محور خطابه علاقة أميركا بالإسلام، وفجأة أخذ يطمئن أقباط مصر وموارنة لبنان، وتنديد الرئيس الفرنسي نيكولا ساركوزي في مطلع 2011 في تفجير كنيسة القديسين في الاسكندرية "هناك مخطط مشبوه لتطهير ديني يستهدف مسيحي الشرق". نجد أن الوضع في سوريا خلال الأزمة المرقطة انتقل من خطاب لآخر اجتماعياً وثقافياً مع احتفاظه باستمرارية تضيف للأسباب المفتتة أسباباً أخرى، فتحركت الأزمة السورية من شكل احتجاج سياسي اجتماعي سلمي إلى شكل احتجاجات ذات طابع سلفي أصولي، أو إثني بشكل سريع إلى صراع سني شيعي، جعل من المسيحيين في بعض المناطق هدفاً للصراع ولكن ليس بشكل اضطرار مقصود حتى الآن.
- ختاماً يبقى من الواضح أن المحددات الراسخة للسياسة الخارجية السورية:³ الهوية القومية العربية، الجغرافيات السياسية وميزان القوى، مما فرض موقع سوريا الجيوسياسي عليها قابلية استثنائية للتعرض للتهديد، وبشكل طبيعي واجهت ميزان قوى اقليمي غير مناسب، ما أدى بالضرورة إلى تخفيف الرغبة في الفعل في مجال الشكاوي التحررية.

¹الباحث حسان عباس، إدارة التنوع في سوريا، مبادرة الإصلاح العربي، باريس – فرنسا، 2012.

²المطران يوحنا إبراهيم متروبوليت حلب للسريان الأرثوذكس – مقابلة تلفزيونية على الـ BBC 12 نيسان 2013 .

³رايموند هينبوش سورية ثورة من فوق، رياض الريس للنشر والنشر، بيروت – لبنان، تشرين الثاني 2011.

• الطريق إلى الأزمة والتحضير لها.

من خلال التحضير المقصود أو غير المقصود، ومن باب إلتقاء الاستعداد بالفرصة، تراكمت الأخطاء الاجتماعية، الاقتصادية، الثقافية والسياسية الداخلية، مع ترافق ضغط دولي وإقليمي، مما أعطى الفرصة لتحويل سوريا من لاعب إلى مسرح للأحداث، وفتح الباب لسيناريوهات متعددة في سوريا والمنطقة ضمن حدود مابعد الكولونيالي الذي فشل في بناء هويات مواطنيه (لبنان، سوريا، الأردن، فلسطين) بعد هجرة الوطن إلى أوطان، فلم تندمج عناصر الدولة الحديثة (الأرض، الشعب والدولة) وهم اللذين كانوا يعرفون كسوريين أو بأسماء، عائلاتهم، مدنهم، عشائرهم ودينهم.

تتمحور المسيرة الطويلة حول مجموعة من النقاط الأساسية والتي تفرعت عنها أغلب المشاكل والممارسات التي أوصلتنا إلى مآلنا فيه وفق مايلي:

مصنوفة القيم للمجتمع عبر النسق القيمي للفرد واحتمالات التغيير

النظام القيمي يجمع بين عدد من القيم التي يتشربها الفرد وتصبح جزء منه وتوجه سلوكه. (مجموعة المركز أو المحور – مجموعة فرعية)، فكيف تمت عملية تغيير نسق الفرد القيمي في ظل برامج تعليمية حكومية غير ديناميكية من جهة، ودخول أفراد ومؤسسات على خط الأسرة لتؤثر في عملية التكوين؟.

نتيجة التطور الكبير فقد دخل على خط الأسرة بمفهومها الواسع المسؤول عن غرس قيم الثقافة السائدة في نفوس الأفراد، مجموعة من الأفراد والمؤسسات والأجهزة فأضحت العملية أكبر حجماً وأكثر تعقيداً، ومن خلال تفاعل مكونات النسق القيمي مع خصائص الشخصية، ينتج هذا التفاعل أنماط من الشخصيات لبعضها القدرة على التأثير في الآخرين من خلال التأثير على النسق القيمي، وللبعض الآخر استعداد لاستقبال التأثير فتتأثر بالآخرين.

يسري هذا الاسقاط على كل الجماعات والمنظمات التي تم انتاجها في مجتمعنا في العقود المنصرمة، فأوصلت الأمور إلى ما هي عليه، فجاءت السيطرة على عملية الصياغة العقائدية في المجتمع السوري من خلال المنظمات الشعبية، وكان رد الفعل يبني في جماعات متطرفة اسلامية، ولم يكن ما بينهما أطر لتوازن المجتمع سواء من ناحية جمعيات المجتمع الأهلي، الأحزاب، النقابات، الأندية أو الكشاف أو الجمعيات والمدارس المسيحية أو الشرعية المسموح لها بالعمل.

إن التطرف هو نمط سلوكي، ولا يبرز فقط في المجال الديني، ولكن ماجرى هو أن السلوك في المجتمع السوري خصوصاً وفي المجتمع الاسلامي عموماً، بدأ يتغير بناء على برامج عمل تتضمن محتوى ثقافي يهدف إلى توجيه السلوك، تغيير القيم والاتجاهات. فهو برنامج عمل يؤدي إلى إحداث تغييرات في النسق القيمي للفرد بحيث انعكس بأنماط سلوكية غريبة في زمان ومكان معينين وأثار مشاعر المحيطين بالفرد ابتداء من أسرته، إلى زملاء العمل إلى الذي يلتقي بهم في مناسبات معينة في الجامع أو الكنيسة .

تتطلب بعض البرامج التي تضعها الجماعات الدينية المتطرفة أن يعلن الفرد عن جانب من محتويات نسقه القيمي بأفعال وأنماط سلوكية واضحة للعيان، منها ما يتصل بالمظهر ومنها ما يتعلق بالعلاقة مع الآخرين، وذلك كونها عودة إلى الجذور أو الأصالة، ثم يتدرج في التطرف فيطلق صفة الكفر على المجتمع والابتعاد عنه، ومحاولة لتكوين مجتمع خاص، وهذا السلوك هو ليس ببساطة عمليات التغيير أو التأثير الأجنبي، بل بدأ يصبح سلوك نابع عن إيمان قوي بما يعتقد.

وقد نجحت الجماعات الاسلامية المتطرفة في التفوق على الجماعات والمنظمات التي اقتسمت معها الساحة (برأبي)، أعتقد أنه إلى حين فقط)، لقد يسر الدين الاسلامي وانتشاره في المجتمع المهمة انطلاقاً من أهداف عامة وسامية نظرياً كإعلاء كلمة الله، والحكم بشريعته، وانتهاء بالاستناد إلى دغدغة المشاعر المتصلة بالذاكرة التاريخية، بينما عقدت الشعارات والايديولوجيات الوافدة والمستوردة الأمر على الأحزاب والمنظمات القومية – العربية والسورية مع تحديات الصراع الاسرائيلي وعدم نجاح واكتمال السياسات التنموية، وإقصاء الآخر سياسياً وثقافياً.

ويبقى السؤال مفتوحاً (مما يحفز الآمال على استنباط أفكار جديدة للحل)، لماذا لا تنتشر أفكار الجماعات الدينية المتطرفة بين جميع الأفراد؟

التركيبية الاجتماعية الاقتصادية: لقد أفرزت ثورة الثامن من آذار 1963 العقد الاجتماعي الذي قدم من خلاله الحزب قائد الدولة والمجتمع خدمات مجانية للمواطنين في التعليم والصحة والبنى التحتية ومشاريع الاصلاح الزراعي والري، مقابل سيطرة سياسية مطلقة مستندة إلى اقتصاد ريعي تحكمت بمفاصله، نتج عنها مجتمع مغلق اقتصادياً ومحكم عسكرياً. وقد استمر هذا العقد حتى تسعينيات القرن الماضي مع بدايات التحول الاقتصادي والسياسي في العالم، ما فرض واقع يحتمل التزبث ولا يحتمل التأجيل لصياغة عقد اجتماعي جديد لم يتم (بينما تم تعديل الاستراتيجية السياسية الإقليمية والدولية لسوريا)، يقوم على المشاركة في الانتاج، وعلى المساءلة على الانفاق العام، ونوعية الخدمات التي تقدم للمواطن، يتطلب هذا العقد دولة ديمقراطية يكون للسوريين فيها مساحة تشاركية شاملة لكافة فئات المجتمع ضمن منظومة سياسية تعددية، وجاء التحول التدريجي في دور الحكومة والمؤسسات العامة مجتزأ، وجاءت التغييرات من القمة إلى القاعدة ضمن نموذج حذر من الانفتاح الاقتصادي الذي لم يرافقه تطوير حقيقي في المنظومة السياسية ولا في المنظومة الثقافية، فتحول الاقتصاد السوري إلى اقتصاد سوق اجتماعي مع تأخر وضع المصداقات الاجتماعية المناسبة قيد العمل، وبقي الإطار التشريعي مرتبطاً بدور مركزي للحكومة في توجيه الاقتصاد والمجتمع.

بالإضافة لذلك عانى المجتمع من حالة تبسيط سياسية وليست فكرية، وتشويه حقيقة الحالة على الصعيد الاسلامي – المسيحي، الاسلامي - الاسلامي من جهة، ريف – مدينة، غني - فقير من جهة أخرى، مما أفرز سكان درجة أولى وسكان درجة ثانية بمعايير مختلفة منها الممارس ومنها الذهني.

السياسة الثقافية: كانت سياسة موجهة، من القمة إلى القاعدة، لم تسمح ببناء ذاكرة مفتوحة لمجتمع يمارس ثقافته في حياته اليومية من وحي المكان والتنوع الثقافي الذي يعيش به، إن عملية التهميش لم تشمل أحزمة الفقر وفئات بعينها، بل طالت حتى مراكز المدن فلم يكن التهميش مكانياً، كما ابتعدت السياسة الثقافية عن مجازاة العصر بالرغم من استعمالها مصطلحات جديدة من الحضارة الغربية ولكن بفهم قاصر، فلم تتمكن من ايجاد مصطلحاتها، ولم تفهم المصطلحات ضمن التطور التاريخي والعلمي ومعايشة هذه المصطلحات.

تجنيد المثقف العربي من كل الأطراف مع بقاء استثناءات: يقول إدوارد سعيد⁴ إن "الحكومات إنما تريد أن يتحول المثقفون إلى خدام لها، يحولون الانظار عن أعداء البلاد الطبيعيين بابتكار عبارات ملطفة وقاموس لغة خشبية، ونظام كامل من العبارات المقنعة التي يمكنها أن تخفي ما يجري، باسم النفعية المؤسسية" فالمثقف العربي منهم من أقبل ومنهم من استقال وعلى مدى سنوات طويلة فانكفأت فكرة العروبة العلمانية الديمقراطية التي حاولت نشر ثقافة الحداثة واحتضان الأقليات، لمصلحة منظومة محافظة قوامها النفط والتبعية.

وقد تم استعمال جزء من المثقفين العرب ضمن التضليل الذي مورس لتأجيج الأزمة السورية بأبعاد مختلفة ومن كل الأطراف، فلم يعد المثقف العربي ناشطاً مجتمعياً ذو حس أخلاقي وبتأوا يكتبون التفاهات ويظهرون في برامج متلفزة مشبوهة التمويل والتوجه نتيجة للإغراءات المالية، والانضواء تحت الصحافة النفطية.

⁴ إدوارد سعيد، صور المثقف، بيروت، دار النهار، 1996.

في عام 2007 برز السؤال التالي: ما دلالات تزايد انتشار البرامج الدينية على الفضائيات العربية، والفضائيات الدينية المتخصصة؟ ولماذا يتزامن هذا التزايد مع مقطوعات الفيديو كليب؟ وآثار هذه البرامج على المجتمعات العربية؟ ومن النقاط الوظيفية لتلك الفضائيات ومجال تأثيرها الحيوي، يتناول الباحث سلام كواكبي تحت عنوان "انقلاب في المشهد البصري أم ظاهرة وقتية"⁵ مايلي:

- ❖ تأطير التواصل مع جيل جديد عمرياً وفكرياً والتأثير في خلق توجهات فكرية دينية، قابلة للاستعمال باتجاهات مختلفة.
- ❖ خلق عادات جديدة تصبغ التعاملات اليومية بمرجعية تلفزيونية دينية، وتغير المحيط الحيوي الانفعالي من الجامع والمدارس الدينية، إلى الفضاء العام.
- ❖ تنويع مجالات التعرض مثل السياسة العامة والعلاقات الاجتماعية، والخاص والخاص جداً، العلاقات الاقتصادية التي تأخذ حيزاً من المعالجات التي تضيء على التعامل المادي أبعداً روحانية توّطرها وتنظّمها. وظاهرة الفن الديني من غناء إلى تمثيل يستخدّم الموضوع الديني في معالجته الموسيقية أو الدرامية. من الأمثلة: قناة "الرسالة" انضمت إلى بقية قنوات روتانا الترفيهية، وكانت الفكرة أولاً أن يطلق عليها اسم "روتانا دين"، لكن رفض مالك الباقية، الأمير الوليد بن طلال، هذا الاسم الذي كان مقترحاً في البداية. وإزاء الاستغراب بأن تقوم مجموعة إعلامية متخصصة بالترفيه وبمقطوعات الفيديو ("الكليبات") ببثّ قناة دينية، يتبنّى الداعية السيّد طارق سويدان⁶، مديرها العام وأحد أشهر دعاة التلفزة الدينية، التبرير الشرعي بأنّ "الحسنة تذهب بالسيدة".
- ❖ يخاطب البرنامج الديني في المحطّات العربية الدين الإسلامي، بصورة أساسية، إذ لا توجد برامج مخصّصة للطوائف المسيحية العربية إلا وجوداً محدوداً، تبتّ أغلبها من خارج الدول العربية، مثل القنوات الموجهة إلى الأقباط في مصر، أو من داخلها، مثل قناة "النور" اللبنانية.
- ❖ تعطي القنوات الرسمية العربية حيزاً هاماً للبرامج الدينية، تبتّ ماتريده السلطة بلباس ديني. من خلال سعي الأنظمة السياسية في الدول العربية خلق مشروعية مزدوجة: سياسية ودينية. وذلك في محاولة لاحتكار الفكر الديني والمزايدة على التيارات المتطرّفة؛ حتّى في حال الحكومات التي تدّعي الليبرالية أو القومية أو الاشتراكية أو التقدمية.
- ❖ الابتعاد عن الاستثمار في البرامج ذات المستوى الثقافي الرفيع إلا فيما ندر. فأضحى الترفيه الخفيف الذي يميل إلى السطحية والرداءة يدفع المشاهد إلى العيش داخل ثنائية مزيفة ومخالطة للوعي: التسلية البحتة من جهة، والإتباع الحرفي للتعاليم الدينية المطروحة للخلاص من ظلم الحياة.
- ❖ الإحجام عن نشر السلوكيات والأخلاقيات الإيجابية ذات البعد الإنساني (الصدق، النظافة، السلام، ...) أو الاجتماعية (حب العمل، حب الوطن، ...).
- ❖ تعزيز الحيز الخاص للمتلقّي وليس الحيز العام. فالمشاهد المسلم، كلّما ازداد تديناً، يعتبر الحيز العام الحالي حيزاً لادنياً، أي أنّه حيزٌ كافرٌ كلياً أو جزئياً، وخاصّةً وأنّ البعض لم تتبلور لديه فكرة الحيز العام كجزء من حالة مواطنة تعاقدية أنشأتها الدولة.

ويختم الباحث إجابته عن السؤال، فلنوعان جمهورهما العريض وخصوصاً من الشباب عديمي الثقافة، وللاثنتان وظيفة إيديولوجية سيزيد انتشارهما في لحظات وأزمنة اجتماعية معيّنة.

⁵الباحث سلام الكواكبي - الحوار المتمدن-العدد: 1790 - 2007 / 1 / 9 المحور: الصحافة والاعلام.

⁶ مقابلة مع مدير القناة الداعية طارق سويدان في جريدة الشرق الأوسط اللندنية في 12 آذار / مارس 2006.

واليوم سماحة مفتي الجمهورية في سوريا، الدكتور أحمد بدر الدين حسون يتعجب من طريقة تعامل المسلحين المعارضين وكيف وظفوا الإسلام لخدمة مآربهم ومآرب الدول التي تدعمهم حيث قال "أن هؤلاء بعيدين تمام البعد عن صحيح الدين الذي أنزله الله وبعيدين عن السماحة التي يتميز بها ديننا وأنا أتعجب كيف يطوع هؤلاء الدين لخدمة مصالحهم ومآربهم، وأتابع باستمرار قنواتهم مثل الرحمة والحافظ ووصفاً، وأرى كيف أن هؤلاء الشيوخ يدسون لشبابنا المسلم أفكار دخيلة على الإسلام لم ينزل الله بها من سلطان، وما حدث كل هذا الفساد إلا بسبب غياب دور الأزهر حيث ترك تلك القنوات تعبت في عقول المسلمين والعرب ولم يتصدى لهم".⁷

مما تقدم يتكون المشهد العام الافتتاحي على تخوم الأزمة وفق مايلي:

اضطراب اقليمي مستمر، تبسيط سياسي وتآزيم فكري، تشويه حقيقة الحالة، إدارة قلق الأقليات وفق ابيولوجيات معينة ومكونات فنوية واللجوء إلى توازنات من المحسوبيات والأليات المغلوطة لتشكيل النخب واستقطاب القيادات التقليدية للمجتمع حول السلطة، واستعادة لثنائية الصراع بين البعث والإخوان المسلمين في منطقة متنوعة ومتعددة ثقافياً ومذهبياً واثنياً، مع عقم في تطور السياسات الاقتصادية - الاجتماعية لتنمية موجهة من القمة إلى القاعدة ، لا تستند على مشاركة سكانية حقيقية ولا تمتلك قنوات التواصل الديمقراطي اللازمة، ولا مركزية إدارية تمكن السلطات المحلية مع الشركاء المحليين من انتاج اطار مرن لإدارة مدنها ومشاكلها التي شكلت حاضنة للفقر من مناطق السكن غير المنظم التي استقطبت جزء من الهجرة الريفية والمهمشين اجتماعياً - اقتصادياً، وأضحت نقطة انطلاق للأزمة في المدن السورية مع امتدادتها الاجتماعية الريفية العشائرية.

طائفة نظام وليس نظام طائفي، يبرهن كمال ديب من خلال كتابه "تاريخ سوريا المعاصر"⁸ على عدم صحة الرؤية الطائفية لتحليل الأمور في سوريا، وعبر إعادة التظاهرات الطائفية التي تظهر هنا وهناك إلى العوامل الأفقية والعمودية التي تحكم الوضع السوري " لا يمكن للوعي والسلوك الطائفيين أن يتحركا إلا من ضمن الشبكة المصلحية والاقتصادية والسياسية في البلاد، لأن عوامل الحاجات الاقتصادية ومسائل الاستقرار والأمن وسياسة الدولة الإقليمية والدولية خاضعة لمصالح طبقية ومدارس فكر اقتصادي وسياسي وحسابات ربح وخسارة وليس إلى منطلق مذهبي. وتتمظهر الطبقات في مصالح تجارية و رسمية وعسكرية تجمع أطراف المذاهب كلها لا طائفة بعينها".

ثقافة الخوف المتعددة في سوريا، مجتمع ذكوري أبوي قائم على التخويف كوسيلة للسيطرة، مروراً بثقافة التخويف الديني التي يستخدمها رجال الدين من كافة الطوائف والأديان لتكريس سلطتهم على الرعية، إلى الخوف من السلطة والنظام الأمني، مما نمى لدى السوريين مخاوف تنوعت من الأخر إلى ثقافة المؤامرة في مواجهة العدو الخارجي، فاختفت آلية العمل الجماعي من أجل الحفاظ على السلم الأهلي.

ثقافة سياسية عوضاً عن سياسة ثقافية تسمح بالتعبير عن الذاكرة المفتوحة للممارسة اليومية لمجتمعنا بتنوعه، أفرزت تهميشاً ثقافياً غير مكاني، لم يقتصر على أحزمة الفقر المحيطة بالمدن، أو الأرياف بل حتى مسيطراً في مراكز المدن، وهو ناتج عن اختبارات ومشاهدات عملية قمن بها خلال فترة طويلة للعمل التنموي، إضافة إلى نقاط ضعف بنيوية وإعلام محلي غير كفؤ لخوض منافسة مع الإعلام العربي والعالمية. فجاءت خطوط الانقسام شاقولياً وأفقياً لترزعزع الفرص ببناء رأسمال اجتماعي - ثقافي وقيم تؤسس لهوية وطنية ضمن مشروع سياسي على المدى المنظور.

⁷ سماحة مفتي الجمهورية الشيخ أحمد بدر الدين حسون في لقاء مع بوابة روز اليوسف 12 حزيران 2013
⁸ الباحث كمال ديب، تاريخ سوريا المعاصر من الانتداب الفرنسي إلى صيف 2011، دار النهار، بيروت - لبنان، 2011

• الأزمة المرقطة.

من صفات الأزمة هو الاحتواء المزدوج لأطرافها وفق صور متخيلة لكل مجموعة من المجموعات على حدا، ساهمت وسائل الإعلام العالمية والعربية والمحلية، ووسائل التواصل الاجتماعي، اليوتيوب، في صياغة الإحتواء وأنتجت تجييشاً تداخل فيه الصراع الدولي، الصراع مع الاحتلال الاسرائيلي، الصراع القومي – الاسلامي، الاسلامي – الاسلامي، صراع الريف – المدينة، صراع الغني والفقير، وصراع المؤيد والمعارض.

فإذا ما أعدنا مراجعة ماجرى في ربيع عربي أضحى بشتاء اسلامي، فالمشهد السوري لا يزال ضمن مراحل أربعة حدثت وتحدثت، ولا تزال مرشحة للحدث⁹:

❖ **المشهد العفوي المطلي القصير والمبني على عقم السياسات التنموية، والإدارة غير الموقفة للتنوع الثقافي، وهي احتجاجات مشروعة مادامت في سياق الضغط على السلطات في سبيل تحقيق مطالبها سلمياً، مما أفرز وقوداً للحراك وفق مايلي¹⁰:**

- سكان الأرياف المهمشة المحبطة بالمدن.
- مناطق السكن غير المنظم التي تعج بالعاطلين عن العمل.
- النازحون من مناطق الجفاف إلى المدن.
- أبناء الطبقة الوسطى المتعلمون والباحثون عن مكانة اجتماعية تليق بشهاداتهم.
- مناضلون ومثقفون ومفكرون وكتاب وناشطون في هيئات المجتمع المدني.
- أكراد وتركمان وأبناء أقليات قومية.

إن الاحتجاج وحده في ظل غياب وتغييب التيارات الليبرالية وانزواء القوى الديمقراطية والإصلاحية جراء ضعفها، جعل الاحتجاج من دون تلك القوى ومشروعها المستقبلي، يفسح المجال للسلفيات والأصوليات وللتدخل الخارجي أن يخلخل المجتمع السوري بطريقة لا يمكن التكهن بنتائجها وعقابيلها.

❖ **تحرك القوى المماسسة بشكل منظم لوضع اليد على الحراك (القوى الاسلامية بشكل أساسي) أو الاستفادة منه (الأحزاب الكردية)، وتراجع ملحوظ للقوى المدنية التي برزت في الحراك في مرحلته الأولى. فتم خطف المشهد العفوي الحقيقي وركب موجته وتوجيهه لخدمة أهداف تلك القوى.**

❖ **دخول العامل الخارجي لضبط المصالح الجيو استراتيجية، السياسية والاقتصادية ومن يتابع الصراع المسلح على الأرض يرى بأن توزيع الجبهات حصر المعارك في مناطق مجاورة للحدود في لبنان وتركيا والأردن والعراق لتسهيل التدخل الخارجي. وأتت الضربة الإسرائيلية لتزيد الطين بلة، وتصويره مؤخراً على أنه صراع سني شيعي.**

❖ **إعادة خلط الأوراق للجميع اقليمياً مما قد يبلور مشروع نزاعات وحروب أهلية طائفية، إثنية متفرقة مدعومة بالبيئة الحاضنة الجديدة المحلية والإقليمية، مثل طوائف دول الجوار المحقونة اعلامياً. ومما يزيد تعقيد المشهد السوري، التنوع السوري وتأليب الطوائف الخائفة كمقدمة لتمزيق سورية والمنطقة في تلك الحروب الأهلية المتنامية المتنقلة، مضافاً إليها العطب الغير قابل للإصلاح في بنية الدولة السورية، التي باتت ثقيلة وكابحة للتطور ومعيقة لمشاريع التنمية، في غياب كيان الدولة الحديثة القادرة على التجاوب بشكل مرن وفق متطلبات المرحلة.**

⁹ من حوار مع الباحث كرم كرم، مبادرة المساحة المشتركة ، بيروت – لبنان حزيران 2013.
¹⁰ صقر أبو فخر، أعيان الشام وإعاقة العلمانية في سوريا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت-لبنان، 2013.

تحليل كمال ديب¹¹ باستعمال طريقة دلفي، نجد أن 60 % من الأزمات خارجية، 40% داخلية، وبالإعادة بشكل أسئلة مباشرة وبدون استخدام التقنية التي استخدمها الباحث، ومع مجموعة متنوعة من السوريين أتت النتيجة واحدة مع بعض التغييرات بالنسب.

عوامل الأزمة	نسبة الخيار وفق الدراسة %	نسبة الخيار وفق حوارات خاصة مع عينة من السوريين ¹² %
الربيع العربي	5	5
ربيع دمشق	10	5
الحرب الإعلامية – الدبلوماسية	15	20
استمرار الصراع السوري – الاسرائيلي	20	20
استمرار الصراع بين البعث والإخوان المسلمين	25	20
تدمير الدولة والمجتمع السوري	15	15
انفجار اجتماعي – اقتصادي داخلي	10	15

الحرب الإعلامية والدبلوماسية، تمكنت الحرب الإعلامية والدبلوماسية من منع ظهور أي حل سلمي أو سياسي، ومتابعة التسويق لإسقاط الدولة بأكملها عبر شخص الرئيس، واستعملت أحدث الوسائل الإعلامية من فضائيات وإذاعات وتكنولوجيا تواصل اجتماعي وهواتف نقالة وأقمار صناعية. لقد ساهمت الفضائيات العربية في ارسال رسائل سامة وأثارت الضغينة والكراهية وسوقت لخطاب الكراهية. في وقت كان من الممكن لها أن تلعب دور بناء في استنباط أشكال فكرية جديدة تستفيد من الحراك المجتمعي وتبني عليه، وقد طالت الحرب تجنيد الإعلام العربي والناطق بالعربية (من دول أجنبية) وجزء كبير من المثقفين العرب والغربيين.

تركيبية اللاعبون الاجتماعيون – السياسيون،¹³ إن التحول من بنية متعبة إلى بنية جديدة، تتغير من خلالها أوزان القوى الاجتماعية، وتبرز فيها مصادر جديدة لهذه القوى وفق مايلي:

- ❖ مقارنة مفهوم السلطة الفعلية والسلطة الرسمية.
- ❖ ظاهرة المؤتمرات واتضاح خطوط المعارضة الداخلية والخارجية.
- ❖ المستقلون.
- ❖ الطوائف.
- ❖ اللاعب العشائري والقيادات التقليدية.
- ❖ الفيسبوكيون والتنسيقيات الافتراضية والمراسلون الميدانيون ثورة اليوتيوب.

من صراع الطبقات إلى صراع الطوائف، الولاءات السابقة للاقتصاد الحديث في سوريا يتخطى الحدود الطبقة فتخرج ولاءات ثنائية أو ثلاثية: ولاء الطبقة الاجتماعية، ولاء الطائفة وولاء المنطقة وأحياناً الإثنية. وقد يحصل أن يطغى الولاء الطائفي على أي ولاء آخر فيخرج للعلن في صراعات مختلفة كالتالي تمر بها الأزمة السورية.

ومرة أخرى وبالرغم من رفع شعارات لم تتكرر كثيراً إلا أنها وثقت مثلاً 2005 في القامشلي " لا عرب ولا سريان هي كردستان" وفي 2012 "العلوية عالتابوت والمسيحية على بيروت"، لم تلبث أن تتراجع تلك الشعارات

¹¹ كمال ديب، أزمة سورية، انفجار الداخل وعودة الصراع الدولي 2011-2013، بيروت، دار النهار. أيار 2013.

¹² تم إعادة التمرين من كاتب المقال مع عينة متنوعة من السوريين.

¹³ محمد جمال باروت، العقد الأخير في تاريخ سورية – جدلية الجمود والإصلاح، بيروت، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، آذار 2012.

ويحل محلها "واحد واحد الشعب السوري واحد"، "سلمية .. سلمية" 2011، لا يمكن للوعي والسلوك الطائفيين أن يتحركا إلا ضمن شبكة مصلحة اقتصادية وفي سياق الصراع السياسي العام في سوريا، ويبقى ضرورة مواجهة التموضع الطائفي وتحريكه واجباً ولا سيما في ظل ما حصل في حمص من تهجير جزئي للمسيحيين إلى ريف حمص وطرطوس واللاذقية.

ما هو وضع المسيحيين في الأزمة، لم يُعلن الاضطهاد مباشرة على المسيحيين في سوريا، كما حصل في العراق وخاصة في مدينة الموصل. يوجد عدد كبير من الشهداء المسيحيين خلال الأزمة في سوريا في آذار/2011، وقد يتجاوز عددهم الألف، وقد استشهدوا لأنهم إما كانوا موظفين في دوائر الأمن، والشرطة، والجمارك، أو في الجيش العربي السوري، وبعضهم على أثر قذائف الهاون على التجمعات السكنية، ورصاص القناصين، والقصف بالمدفعية أو بالطيران، ولأن كثيرين من المسيحيين يعيشون مع المسلمين في حي واحد أو شارع واحد، كما أن خسارة المسيحيين المادية كانت كارثة عليهم، لأن الأغنياء بينهم وأصحاب المعامل، والمصانع، والمحلات التجارية والمهنية، أصيبوا كباقي الناس. ولا تزال الكنائس حتى الآن تمارس طقوسها بكل حرية، طبعاً في بعض الأحيان والأمكنة تكون هنالك اشتباكات متواصلة بسببها تغلق الكنائس وتبقى في حالة انتظار. في بعض المناطق يوجد ترتيب أمني ليس للكنائس بل لأحياء المسيحيين بشكل عام، أما نسبة المصلين فقد خفت كثيراً ولا نرى اليوم ما كنا نراه قبل أحداث آذار/2011، أستطيع أن أقول بأن نسبة المصلين اليوم هي تحت الـ 50% ما عدا في بعض الأحياء التي يشكل المسيحيون أغلبية سكانها، ووجودهم في الكنيسة عادي، وكل هذا آت من الخوف والقلق لحالات أمنية غير مستقرة، وهذا الوجود المسيحي خف أيضاً أثناء القيام بالخدمات مثل: الزواج، والدفن، والعماد وغيرها¹⁴.

• الخروج التدريجي من الأزمة ليس حلاً .

تحولات الأزمة ... أخطر من الأزمة ... والخروج من الأزمة... ليس هو الحل للأزمة. ويبقى اليوم المطلب الأول وقف العنف وإراقة الدم السوري، منع تمدد الصراع إلى الإقليم، ثم وقف استنزاف الحلول الاجتماعية والاقتصادية والسياسية الممكنة حتى لا تنهار الدولة.

إن ما يحصل ليس سوى رأس جبل الجليد لعملية تفكيك بنى المجتمعات وانهيار تماسك فضاءاتها الاجتماعية والاقتصادية، يجري تفكيك مفهوم الدولة وأجهزتها، مع سيطرة الإعلام العالمي الفاقد لأي أخلاقية على الأذهان المحرومة ثقافياً، مدعوماً بنقاشات تخاض على وسائل التواصل الاجتماعي تنتج انقسام متزمت وتساهم في عمليات تجييش بأبعاد مختلفة وغير صحية، ويبقى السؤال كيف يمكن بناء هيكلية ثقافة جديدة برافعة اجتماعية تنشر قيم المواطنة والإنسانية وتساعد على النهوض من جديد وحماية ماتبقى من الوطني؟

أوصلت الأزمة الواقع الاجتماعي في سوريا إلى حد الكارثة، فخرست سوريا حتى اليوم 15 عاماً من التنمية الاقتصادية والبشرية، وسوريا اليوم بحاجة ملحة إلى فعل إغاثي إنساني عاجل مدعوم من كافة المعنيين من دولة ومجتمع مدني وقطاع خاص وجهود دولية، فآثار الأزمة على واقع الغذاء والدواء والصحة والتعليم والنقل والاتصالات، أصبحت كارثية مع ارتفاع عدد الوفيات بفعل العنف المسلح أو نقص الطبابة والغذاء أو وفاة معيل الأسرة وكل ذلك مع تعذر إيجاد البديل. إن توقف الصراع اليوم والتوصل إلى حل سياسي لا يعني توقفاً حتمياً أو مباشراً لتدهور مؤشرات التنمية بل ستستمر هذه المؤشرات بالتراجع لفترة قد تطول أو تقصر قبل أن تبدأ بالتحسن من جديد.

انتشار مظاهر قبل مدنية للانقسام والشرخ السياسي والاجتماعي، تشويه للقيم والمفاهيم الإنسانية مثل الحرية والحوار والعلمانية وحقوق الإنسان وغيرها، الخوف من العنف والجريمة والأصولية والتطرف، الخوف من الآخر، الهجرة والتهجير والنزوح، رسم صورة سيئة للسلام، خوف المسيحيين من التهجير، والأقليات من التطهير العرقي

¹⁴المطران يوحنا ابراهيم متروبوليت حلب للسريان الأرثوذكس – مقابلة تلفزيونية على الـ BBC 12 نيسان 2013 .

والديني، تشويه صورة السوري، ومع كل يوم يمر تتضاءل فرص المصالحة والوحدة الوطنية بفعل اشتداد الأزمة على الصعيدين الإنساني والاجتماعي.

في ظل عدم الاستقرار الذهني ضمن بعد ديني صعب تجاوزه، وفي عملية تحول تعاني من انسداد تاريخي يتجلى اليوم في أشع صورته، فإن الانتقال من الإسلام دين ودولة إلى فصل الدين عن الدولة وسط مجتمع أضعف التيار الليبرالي والعلماني واستوعب كتلة تيار ديني سلفي، مع ضبابية ذهنية للتعاطي مع الواقع، يصبح لزاماً بناء رأس مال اجتماعي يؤمن بالمواطنة والتنوع وقبول الآخر من جهة، وقادر على ارساء محاولة لفهم العقل الديني بدون فصل مذهبي وطائفي (اسلامي - مسيحي)، (اسلامي - اسلامي) عبر إعادة النظر ببارث يقتتل من 1000 عام، وتفكيك المفاهيم والممارسات التي أفرزها، واستثمرت في تواطؤ بعض رجال الدين والسياسة والاقتصاد في محاولة السيطرة وخدمة مصالحهم، كل ذلك أمام رسالة إلهية واحدة.

إن مجتمع المدينة في سوريا انشطر إلى سلطة جاءت من مجتمع ريفي من خلال الجيش (أي أن الديمقراطية ليس على قائمة أولوياتها) ومعارضة ذات طابع اسلامي معادية بالأساس للديمقراطية. لقد اسقطت الديمقراطية من حسابات جميع الأطراف الفاعلة في الصراع، فلا الحكومة ولا المعارضات الاسلامية الملفحة بالعلمانية واليسارية والإثنية، ولا المجتمع المدني المنكفي إلى مجتمع أهلي خيري تريد الديمقراطية، ولا القوى السياسية الساعية إلى السلطة بالقوة وبلا مشروع لدولة حديثة. وهكذا فإن ضبابية المشهد تحتم علينا البحث، الآن إلى أين؟

القدرة على نقل السلطة من الحاكم باسم الله إلى الشعب، والحكم باسم الديمقراطية حكم الشعب للشعب، ساعدت في التحولات المدنية لدى المجتمعات التي تغلب عليها المنظومة الثقافية المسيحية في العالم، ولكن في واقعنا في المنطقة العربية والاسلامية في المجتمعات التي تغلب عليها المنظومة الثقافية الإسلامية، يوجد سؤال ملح ومعقد حول كيفية الانتقال من الحاكمية لله، ومن يمثلها، فالحاكم يحافظ على الرسالة الإلهية، والشريعة كمفهوم مثالي تترجم الواجب الأخلاقي لقبول أي إنسان يضمن الأمن والنظام والعمل، ومن الأمثلة (ولاية الفقيه - السلفية والعودة إلى الخلف).

خطاب الكراهية: "ليس معنا هو ضدنا"، يحاول الباحث عمر حلاج في تحليل الظاهرة وإعادة تركيبها في السياق السوري¹⁵، حيث يتبلور الخطاب الجامع من خلال الربح والخسارة في ظاهرة القبائلية الحديثة، وذلك على أساس عقلي ظاهره رفض الظلم وباطنه ضرورة الدفاع عن هوية المجموعة من الناحية النفسية وتبرير استمراريتها. بالطبع تتبدل الأدوار ويصبح الرابح خاسراً والخاسر رابحاً، فتنصلف في ذهنية المجموعات القبائلية الحديثة هوية مبنية تارة على إحساس بالتفوق وتارة على إحساس الضحية، وتعظم الأنا الجمعية للمجموعة على حساب تصغير الأنا الجمعية للمجموعات الأخرى، ويقود التقليل من الخصم غالباً إلى تجريد الخصم من كل أخلاقه، إن ما يجري في سورية خلال سنتين هو تكريس لخطابين رئيسيين متناقضين رافضين لبعضهما البعض، في هذا الإطار تركزت الهوية الأساسية لمجموعات الطرف الأول حول فكرة الضحية فهي تنسب العنف كله لمجموعات الطرف الثاني وتعطي لنفسها الفوقية الأخلاقية لأنها الضحية، وبالمقابل تكرست هوية مجموعات الطرف الثاني حول فكرة أن الوطن هو الضحية وأنها تستمد فوقيتها الأخلاقية من خلال الدفاع عن الوطن، وما أشبه الخطابين ببعضهما البعض، «الأخر» هو المتخلف والفاقد والذي يمارس العنف، بل يتلقى المال مقابل ممارسة العنف، «الأخر» هو شر مطلق. من هذا المنظور فإن أية عملية فض نزاع لا بد أن ترافقها عملية تحويل في الخطاب الناظم لهذا النزاع، ويلجأ أغلب الوسطاء والعاملين على فض النزاعات، إضافة إلى تركيزهم على فصل خطوط التماس وإيقاف العنف الفيزيائي، إلى العمل مع المجموعات المتنازعة لنقل خطابها وتهدهة العنف الخطابي، وتلازم المحورين أمراً ضرورياً.

¹⁵ عمر حلاج، خطاب الكراهية - صحيفة تشرين السورية - سياسة 23 كانون الثاني 2012

تجاوز التسامح وقبول وجود الآخر ضمن هوية المجموعة إلى المساواة وقبول هوية الآخر، وبالتالي الانتقال إلى تشكيل الهوية المشتركة، إن إدارة التنوع وبناء الهوية توضح الأزمة، بأن الانتماء الفئوي برز مع أول انتكاسة خرج فيها المجتمع عن السيطرة المعتادة ليعبر عن وجوده من خلال الديني والطائفي والإثني عوضاً عن الوطني، فمع غياب القدرة على بلورة أسس للهوية الوطنية التي افترضت ايدولوجياً وعلى مدى طويل أن الإنتماء للهوية السورية هو انتماء مرحلي نحو بناء المجتمع العربي الموحد، وبقيت بالمجمل محاصصة سياسية مستترة لهذا الإنتماء الفئوي مما كشفه سريعاً.

دور مكتمل للمجتمع المدني يساعد في استبدال التصلب القائم بحبوية متنوعة، تطوير قدرته على قيادة نفسه بطريقة خلاقة عبر تشكيلاته المختلفة بنظرتها ليتجاوز بذلك مجرد التبعية والولاء إلى قيم مكتملة للمواطنة. وهو ما سيساعده على لعب دور فعال في عملية المصالحة المجتمعية الطويلة، بدءاً من إعادة تعريف الرموز الوطنية وحماية الإرث الوطني وإنهاء بالمفاوضات المحلية لتحرير المخطوفين وتنظيم العلاقات بين المجتمعات المحلية، ولا شك في أن مجموعة من التحديات لا تزال تواجه المجتمع المدني من الإطار القانوني الذي يحكم العمل الأهلي، إلى القدرات الذاتية الفنية والبشرية والمالية المحدودة، عدم خبرته في إدارة برامج المناصرة والدفاع عن حقوق الإنسان أو البحث العلمي والتطوير السياساتي، وختاماً إن أغلب المبادرات الأهلية والمدنية قصيرة المدى ولا تملك بعداً تنظيمياً استراتيجياً بعد، وهو ما فرض في بداية الأزمة عدم القدرة على العمل السياسي المنظم لتطوير البدائل وخوض العملية الديمقراطية فانقل الاحتجاج إلى الشارع في مشهد مطلبى لم يطل كثيراً.

• ملامح عملية التحول مابعد الأزمة (الأسس الجديدة).

ما أصعب المستقبل المفاجأة الذي يجبرنا على البحث في جذورنا وماضيها عن أي تجربة تحمينا منه بعد أن يصبح واقعاً لا يعترف بروحنا، إلا أن عملية الانتقال لحظة بلحظة ومتابعة تحولات الواقع، ربما تكون جزء من ثمن التغيير بشكله الأقسى من العنف والقتل والدم السوري، وتفكك فضاءنا الاجتماعي – الاقتصادي قد يكون فرصة للنهوض وإعادة التشكيل بشكل صحيح.

تتبدى أزمة المعنى بأشكال مختلفة في العالم، وإن دلت على شيء، هو أن البنى السياسية في المجتمعات لم تعد قادرة على تمثيل تطلعات مجتمعاتها والسيطرة على الأحداث، هذه الفجوة بين المجتمعي والسياسي تنتظر فكر جديد يحمل مشاريع بأشكال تعبوية جديدة لتملاء تلك الفجوة، فحتى تنضج سيبقى الإثني والطائفي والعشائري هو الأكثر تحضيراً في الشرق. ومرة أخرى الاستعصاء التاريخي الموروث يواجه المدن السورية، ففي ظل إفلاس النظريات التي حكمت الساحة الثقافية والسياسية لعقودٍ خلت، وفي ظل تهافت النموذج الديمقراطي الغربي ومنعكسات أزماته على العالم العربي والإسلامي، فإن الانكفاء إلى الدين يظهر بما يشبه الحتمية المعاصرة، ويبدو أن المخرج الموضوعي اليوم يكمن في تعزيز معركة التيارات المتنورة والمعتدلة بوجه التيارات الظلامية الإقصائية كمرحلة أولى، و حوار مسيحي اسلامي واقتبس من لقاء المطران يوحنا ابراهيم "المسيحيون لا يريدون أن يكونوا كمأ مهمشاً بسبب أعدادهم التي تتناقص، بل نوعاً مهماً يتفاعل مع النوع الآخر من كل الأديان والمذاهب والاثنيات والثقافات التي هي ألوان هذا الفسيفساء الجميل الذي عرفته سورية في تاريخها الطويل. المسيحيون هم جزء مهم من هذا النسيج الوطني وتشهد أديرتهم، وكنائسهم، وأوابدهم، وتاريخ عطاءاتهم قبل الإسلام وبعده".

ولدت عن التشكيلات الاجتماعية الجديدة في سوريا مبادرات على الأرض وعدد من النماذج المبتكرة والإيجابية في مجال المساعدات الإنسانية، والعمل على بناء نقاط ارتكاز للسلام، ينبغي دعمها وتعزيزها والاستفادة منها لتطوير نماذج أخرى نحو بناء الأمن والسلم الأهلي.

إعادة إعطاء الدور للمجتمع المدني بكافة مؤسساته، الأحزاب والنقابات والأندية والجمعيات كمؤسسات متاحة لجميع المواطنين، وليس لفئة وحدها (جماعة دينية، إثنية، قومية)، ويعول عليه في عملية بناء العقد الاجتماعي الجديد والترويج له، إضافة إلى العمل على المصالحة المجتمعية.

تحديات المصالحة المجتمعية حتى اليوم تتمحور حول ثلاث نقاط¹⁶:

- ❖ إمكانية خلق مرتكزات للسلام وربطها بشبكة سلام محلية ووطنية.
- ❖ القدرة على خلق منصات حوار للسوريين لمواجهة التحديات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية بعد انتهاء الأزمة على الأصدقاء المحلية، الوطنية والإقليمية. وسيكون أحد أكبر التحديات على المدى المنظور كسر حاجز القطبية المطلقة وانعدام الحوار بين السوريين، فالحوار ليس بين موالاة ومعارضة بل بين كل مكونات الشعب وعلى كافة المستويات.
- ❖ العدالة الانتقالية، يشكل الخوف من الانتقام أحد أكبر دوافع استمرار العنف في حالات الصراع المسلحة، فالفريق الخاسر لا يملك ضمانات لحمايته فيفضل الاستمرار بالعنف حتى النهاية، إن تعريف مبادئ واضحة للعدالة الانتقالية قبل انتهاء الأزمة هو أحد أهم الضمانات لإنهاء العنف. وهذا يتطلب في سوريا تحديد أدوار اللاعبين وتقييم القنوات الاجتماعية الممكن الاعتماد عليها، إضافة إلى رسم سياسات للإصلاح القضائي تتضمن إدراج كافة عناصر العدالة الانتقالية وهو ما يمنع سوريا من المسير باتجاه اللاعودة نحو التفكك والانحيار.

تقوم فرص المصالحة المجتمعية على القيم الجامعة للمجتمع السوري، وبالتالي افراز خطاب جامع بقيم إنسانية لا يزال من الممكن بناء التوافق عليها مثل وحدة سوريا وسيادتها، نبذ العنف بكافة أشكاله، ضمان الحريات المدنية وترسيخ قيم المواطنة، ضمان أمن كافة فئات المجتمع وطوائفه، إحلال العدالة الانتقالية عن طريق تطبيق القانون والبناء على القيم الأخلاقية الإيجابية للمجتمع، مما يحضر لعملية وضع وثيقة مافوق دستورية، عقد اجتماعي يقر بالاختلاف والتنوع ويعالج الخلافات الموجودة في المجتمع. ومرة أخرى يأتي الباحث¹⁷ في ختام استعراضه لمراحل تكون خطاب الكراهية إلى عرض نقطة للبدء منها، إن خلق المساحة الوسطى يمكن أن يتحقق على مراحل أولها على المستوى الخطابى قبل أي عمل ميداني، فبدلاً من أن تقاطع بعضنا بعضاً وأن نتبادل الاتهامات، دعونا نؤسس موقفاً جديداً مبنياً على قبول بعضنا بعضاً كمواطنين، فلن ينتهي العنف بانتصار طرف على آخر، الفرصة الوحيدة لإنهاء العنف هي في خلق البديل من خلال مقبولية خطاب جامع بمبادئ لا تزال صالحة للعمل والعيش المشترك.

فهم النظام العلماني وتسويقه عبر جسور ثابتة مع الكتلة الكبيرة من الجمهور، إن الحركة التنويرية الشاملة المشبعة بمفاهيم وقيم المواطنة الفاعلة وصناعة السلام وقبول الآخر هي من سيخرج الناس من انتماءاتهم القبلية وروابطهم التقليدية، عبر إعادتهم كمواطنين فاعلين إلى الشأن العام بالتنوير أو النهوض في نهاية المطاف هو تحويل العقل الجمعي من عقل تبعية إلى عقل مستقل أي خلاق.

عقد تسوية بين الشعب السوري بفئاته المتنوعة من خلال عقد اجتماعي جديد في دولة علمانية تحمي حقوق المعتقد للجميع بدون أن يكون لها دين رسمي، فالأفراد لهم دياناتهم وهم أحرار في ممارسة طقوسهم، والدولة هي الضامن الحيادي لهذا الحقل الاجتماعي، بعد انهيار العقد الاجتماعي القديم في ظل الحزب الواحد (بعثي، شبه ديني، يدير

¹⁶اللجنة الاقتصادية الاجتماعية لغرب آسيا ESCWA الخطة الوطنية لمستقبل سوريا، بيروت – لبنان، كانون الأول 2012 .
¹⁷عمر حلاج، خطاب الكراهية – صحيفة تشرين السورية – سياسة 23 كانون الثاني 2012

التنوع الثقافي ويوازن الأقليات والأكثرية المذهبية العديدة) تطورت أزمته المستقرة إلى أزمة مرقطة تهدد بفشل الدولة وانهارها، وهنا تتداخل المراحل الثلاث المقترحة للعمل وفق الوضع الراهن إلى¹⁸:

- ❖ المرحلة الإغاثية: وهي المرحلة التي لا نزال فيها الآن، مرحلة الإجراءات العاجلة والملحة الواجب اتخاذها من أجل الحد من آثار الأزمة وإنقاذ ما يمكن إنقاذه من حياة بشرية أو بنى تحتية أو تماسك اجتماعي.
- ❖ مرحلة إعادة البناء والتنمية: وهي لا تفترض انتهاء الصراع بالضرورة حيث يمكن البدء برسم معالم المستقبل والانتقال إلى مرحلة السلام والاستقرار بالتوازي مع المرحلة الإغاثية، إن انعدام الرؤية المستقبلية هو جزء من مسببات استمرار العنف.
- ❖ مرحلة إعادة التشكيل: هي مرحلة طويلة الأمد بدأت مع بداية الأزمة 2011، وهي عملية ديناميكية دورية بطبيعتها، تظهر في هذه المرحلة ملامح التغيير في القيم الاجتماعية وتتبلور تغييرات العقد الاجتماعي ويعاد رسم العلاقات التي تحكمه.

الخروج من الأكثرية المذهبية إلى الأكثرية السياسية والتميز بين من يحكم (صناديق الاقتراع) وكيف يحكم (العقد الاجتماعي المتفق عليه) والقوانين المنبثقة عنه، سيكون بمثابة الفرصة الأخيرة لإنتاج نموذج دولة في المشرق العربي هو سوريا الجديدة، فما هو المشروع السياسي القادم؟ (سؤال لا يزال مفتوحاً)، والذي سيستند من جهة على منصة لتطمين الجميع باتجاه المواطنة، تتجاوز المشاريع التي أفضت لما نحن به من التاريخ القريب حتى الآن (العثمانيين الجدد، وهم الاستعمار الغربي بأشكاله لمسيحي الشرق، مفاعيل نموذج الجمهورية الإسلامية)، ومن جهة أخرى وبشكل براغماتي يراعي موازين القوى والمصالح الدولية بشكل عادل مع مصالح سوريا الوطنية.

إن هذا التغيير سيكون طويل الأمد وسيحتاج لحوارات مكثفة بين مكونات المجتمع السوري. وهذا لا يلغي ضرورة توفير إطار للحكومة على المستويين الوطني والمحلي خلال تلك الفترة. فحجم الكارثة الإنسانية الذي وصلت إليه سوريا لن يحتمل تأجيل مسائل الحوكمة والإدارة كثيراً. سيكون من الضروري الإتفاق على إطار انتقالي للبلاد باتجاه حكومة توافقية تتعامل مع جميع مكونات المجتمع السوري بطريقة متوازنة ومتوازنة لتجنب الكوارث الإنسانية الأكبر المتوقعة بعد مسار عنفي بالمقياس الذي شهدته سوريا والناجئة عن الفقر وتهدم البنى التحتية الأساسية وانهايار الإقتصاد وإنعدام الأمن.

إن أي سيناريو سياسي للأزمة السورية اليوم سيواجه بالضرورة مجتمعاً مشتتاً تحكمه مصالح وجهات محلية لا تربطها روابط وطنية حقيقية. وسيكون من الصعوبة بمكان توجيه الخدمات والموارد الوطنية لدعم الإحتياجات الأنية بدون إطار وطني للتشبيك وسط مناخ التفتت الذي تعيشه البلاد. وسيكون أحد أكبر التحديات هو في خلق أدوات حوكمة محلية متشابهة وطنياً (لمنع تشرذم البلاد وتقسيمها) مع ضرورة التعامل بواقعية مع الظواهر القيادية المحلية التي أفرزتها الأزمة. وربما كان أحد الأولويات الأساسية هي في العودة إلى قانون الإدارة المحلية كأحد أوائل المجالات الإصلاحية التي تحتاجها سوريا للخروج من الأزمة، بحيث تعترف الحكومة الإنتقالية بالوضع المحلي للمناطق المختلفة ولكنها تبرم معها اتفاقاً ضمناً مقابل هذا الإعتراف بقبول الإطار الوطني للحكومة مقابل الحصول على الموارد الوطنية اللازمة للإحتياجات الإغاثية والإعمارية.

تدرجياً يجب بناء السلم الأهلي من القاعدة إلى القمة بتحويل المكاسب المحلية للفئات المتنازعة إلى رأسمال سياسي يتم تداوله ضمن إطار ديمقراطي محلي إلى أن يتم الإتفاق على الإطار الديمقراطي الوطني من خلال عملية الحوار الوطني وبناء العقد الإجتماعي والمبادئ فوق الدستورية والدستور الجديد.

¹⁸اللجنة الاقتصادية الإجتماعية لغرب آسيا ESCWA الخطة الوطنية لمستقبل سوريا، بيروت – لبنان، كانون الأول 2012 .

المراجع

- سماحة مفتي الجمهورية الشيخ أحمد بدر الدين حسون في لقاء مع بوابة روز اليوسف 12 حزيران 2013
- حوار مع الباحث كرم كرم، مبادرة المساحة المشتركة ، بيروت – لبنان حزيران 2013.
- صقر أبو فخر، أعيان الشام وإعاقة العلمانية في سوريا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت- لبنان، 2013 .
- كمال ديب، أزمة سورية، انفجار الداخل وعودة الصراع الدولي 2011-2013، بيروت، دار النهار. أيار 2013.
- المطران يوحنا ابراهيم متروبوليت حلب للسريان الأرثوذكس – مقابلة تلفزيونية على الـ BBC 12 نيسان 2013 .
- اللجنة الاقتصادية الاجتماعية لغرب آسيا ESCWA الخطة الوطنية لمستقبل سوريا، بيروت – لبنان، كانون الأول 2012.
- محمد جمال باروت، العقد الأخير في تاريخ سورية – جدلية الجمود والإصلاح، بيروت، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، آذار 2012.
- عمر حلاج، خطاب الكراهية – صحيفة تشرين السورية – سياسة 23 كانون الثاني 2012.
- حسان عباس، إدارة التنوع في سوريا ، مبادرة الإصلاح العربي، باريس – فرنسا، 2012.
- رايموند هينبوش، سورية ثورة من فوق، رياض الريس للكتب والنشر، بيروت – لبنان، تشرين الثاني 2011.
- كمال ديب، تاريخ سوريا المعاصر من الانتداب الفرنسي إلى صيف 2011، دار النهار، بيروت - لبنان، 2011.
- سلام الكواكبي - الحوار المتمدن-العدد: 1790 - 2007 / 1 / 9 المحور: الصحافة والاعلام.
- مقابلة مع الداعية طارق سويدان في جريدة الشرق الأوسط اللندنية في 12 آذار / مارس 2006
- إدوارد سعيد، صور المثقف، بيروت، دار النهار، 1996.